الباب السادس

الخصائص الفنية لشعر أبي تمام

تحدثت فى تاريخ حياة أبى تمام عن حياة شعره، لما كنت أرى بينهما من تلازم واشتباك، لا يمكن معه فهم أحدهما إلا مقترنا بالآخر. وجهدت خلال ذلك أن أنبه إلى الخصائص الفنية لهذا الشعر، وإلى أدواره التى مر فيها. ولكن الكلام هناك مفرق، تصرف تفاصيله النظر إلى الجزئيات، أكثر مما تصرفه إلى الكليات. ولذلك أرى لزاما هنا أن أستجمع تلك النظرات المتفرقة، وأن أتجه فى الحديث على هذه الخصائص، إلى ما يجرى عند أصول تلك التفاصيل التى تحدثت عنها.

١ — طابع عام لفن أبى تمـام

(أ) تزاوج حسه وعقله جميعا ومظهر ذلك : فن أبى تمام فن يجرى فيه الفكر والشعور جنبا إلى جنب، لا يفترقان، ويمكن أن يلخص فى كلمات قصار : تلك هى أنه مظهر حسه للجمال. وهو حس نفاذ إلى سمات الجمال، فى كل ما كان يتصل بأبى تمام فى وجوده، مما تقع عليه الحواس، ومما يدركه القلب والعقل جميعا.

أبو تمام شاعر يرى الأشياء والأحداث بأرق الحواس وأعرقها فى الشاعرية، فإذا فرغ عنده عمل الحاسة بدأ عمل العقل، فيأخذ فى تحليل مشاعره، والضرب فى أنحائها، حتى إذا وجد المعانى التى يبغيها، فنظمها، ورتبها، انقلب إلى إبرازها فى ألفاظ يرصها فى تؤدة، وينمقها فى اطمئنان، فيلائم بين أجراسها وألوانها، ويقابل بين الفكرتين، ويراعى اللفظ وقسيمه. وهو يسير فيها بفكرة واضحة، يكمل البيت ما سبق إليه أخوه، فما يكاد يفرغ من القصيدة حتى يكون قد أخرج للناس موضوعا واحدا متماسكا، تجرى فيه فكرة واحدة.

نَشْرٌ يسير بِهِ شِعْرٌ يهذّبه ... فِكْرٌ يجول مَجالَ الروحِ فى الجسدِ

فالقصيدة بفضل الفكرة الجارية فيها ذات وحدة وتماسك، يدفعان به إلى أن يشبهها بالصخرة فى تماسكها، وتَلاَزُم معانيها، فيقول فى غير غفلة عن الإشارة إلى ناحية الجمال فى فنه :

وكأنما نظمُ القوافِى لؤلؤٌ ... أثبتُّهُ فى جَنْدلٍ منضودِ

فتسمعه يقول لسليمان بن وهب ، يشفع فى سليمان بن رزين ، ٱبن أخى دِعبل الشاعر :

ذو الوُدّ مِنى وذو القربى بمنزلةٍ وإخوتى أُسْوةٌ عندى وإخوانى
لا تُخْلِقَنْ خُلُقٍ فيهم وقد سطعتْ نارى وجدَّدَ من حالى الجد يدانِ
فى دهرىَ الأولِ المذمومِ أعرِفُهم فالآن أُنكِرُهم فى دهرىَ الثانى
لاقى إذن غَرسُهم أكدى ثرىً وجرتْ مِنى ظنونهمُ فى شر ميدانِ
عصابةٌ جاورت آدابُهم أدبى فهم وإنْ فُرِّقوا فى الأرض جيرانى
أَرْوَاحُنَا فى مكانٍ واحدٍ وغدتْ أَبدانُنَا بشآمٍ أو خُراسانِ
ورُبَّ نائى المغانى روحُهُ أبدا لصيقُ روحى ودانٍ ليس بالدانى
أفى أخٍ لىَ فَرْدٍ لا قسيمَ له فى خالصِ الوُدّ مِن سِرى وإعلانى
تُرَدّ عن بحرِك المورودِ راجعةً بغيرِ حاجتها دَاوى وأشطانى
مسلَّطٌ حيث لا سلطان لى، ويدى مغلولةُ النفعِ والسلطان سلطانى
كالنارِ، باردةٌ فى عودِها، ولها إنْ فارقته ٱشتعالٌ ليس بالوانى
ما أنسَ لا أنس قولا قاله رجلٌ غضضتُ فى عُقْبِهِ طَرفى وأجفانى:
نِلِ الثريّا أو الشعرى فليس فتى لم يُغْنِ خمسين إنسانا بإنسانِ

فتسمع حديثا جاريا ، يكمل بعضه بعضا ، ويتسلسل تسلسلا منطقيا لا ٱضطراب فيه ، ولا نبوٌّ لبعضه عن بعض .

وتسمعه يذكر الحب، فيقسم أيامه تقسيم الفيلسوف، ويسرد وجوهه سرد المتأمل، فى أسلوب شعرى أخاذ، فيقول عمن يحب :

ولقد أراك ، فهل أراك بغبطةٍ والعيشُ غَضٌّ والزمانُ غلامُ
أعوامُ وصلٍ كان يُنسِى طولَها ذكرُ النوى فكأنها أيام
ثم ٱنبرت أيام هجرٍ أردفَتْ نجوى أسًى فكأنها أعوام
ثم ٱنقضتْ تلك السنونَ وأهلُها فكأنها وكأنهم أحلام
أتحدرت عبراتُ عينك أنْ دعتْ ورقاءُ حين تَضَعْضَعَ الإظلام
لا تَشجَيَنَّ لها فإنَّ بكاءها ضحِكٌ وإن بكاءك ٱستغرام
هنَّ الحَمام فإن كسرت عِيافةً مِن حائهن فإنهن حِمام

فتحدث عن أمله فى رؤيته فى المستقبل، حديثا أظهر فيه خبيئة نفسه، حتى إذا فرغ منه، تحدث عن المـاضى، فقسّمه، وأسهب فى تصويره، تصويرا يمس القلوب بشـعره، وآكتمال التعليـل، فإذا آنتهى من تقسيمه المعلل، عاد الى حاضره، يلوم نفسـه على البكاء، لأنّ حمامة بكت فذكرته بمـاضيه، ثم لا يترك هـذا البكاء للحمائم حتى يعلق عليـه، تعليق المتأمل فى كل مظاهر وجوده ووجود ما حوله :

لا تشجينَّ لهـا فإنَّ بكاءها ضحِـكٌ وإنّ بكاءك آستغرام
هنَّ الحَمَامُ فإن كسرت عِيافةً مِن حَائِهنَّ فإنهن حِمـام

وهو فى هذا التقسيم، والتبويب، والتعليل، والتصوير، شاعر حق، يهز شعره النفس. لأنه يختار أرق ما فى مظاهر ما يتحدث عنه فيصوره، وهـو لا ينسى مع الفكرة وسلامة الذوق فى آنتقاء الصورة، تلك الحُلَى اللفظية، والآستعارات الرائقة، والبديع. فأعوام الوصل تمكها ذكرى النوى أيام قصار وأيام الهجر لمـا تحوى من أسى أعوام طوال وإن أثر هذا البديع المعجز ليبدو فى بيته :

هُنَّ الحَمَـامُ فإنْ كسرتَ عِيافةً مِن حائِهنَّ فإنَّهُنَّ حِمَـامُ

وأبعد مافيه مبالا هو التنبيه عليه فى البيت، دون آبتذال أوثقل أوخروج عن معنى الشعر. هذا هو الطابع العام لشعر أبي تمـام : حس دقيق رقيق، ومعنى عميق متغلغل إلى ما وراء الظواهر. فأبو تمام ليس ممن يمـد إليه الإنسان يده، فيجده بسهولة، ويعثر عليه وهو مغمض العينين، متى أدرك معـانى مفرداته، ولكنه الشاعر الذى يرغم قارئه على أن يفتح عينيه، ويوقظ كل عقله، ليقع منه على ما يبغى، أو على بعض مايبغى؛ فإذا هو وجده، وجد أكثر مما كان يرجو، وآهتزت مشاعره لفكرته، كما تهتز لشعوره.

وإن شاعرية أبي تمـام ليست من تلك الشاعرية الخفيفـة، التى تمضُى لك من إثارة حس منقطع عما يليه، يأخذك بجماله الواضح فى العين، أو النابت فى القلب وحسب، ولكنها أيضا فى ذلك الإلحاح على إبداء خفايا النفس، ونشر ما يمكن أن يمـر بها فى تجاربها. هى وليدة القلب والعقل معـا، وهى بنت الرياضة والتحكم اللذين يظهران الإنسان صناعة الشعر، وهى قريبة إلى القلب، حتى إنها لتلتبس بالطبع. ليست بالتى تتفجر تفجرا، ويسيل بهـا اللسان سيلا، ولكنها لا تعدم أن تنال من القلب ما ينـاله وليد الطبع، ومن العقل ما يرضى به هوى الفكر، وإن لمح أبي تمـام لمـا عسى أن تصوغ به النفس مظاهر الحياة البريئة، فى ذلك البيت الفذ عن الحمامة :

لا تَشْجَيَنَّ لها فإنّ بكاءها ضحكٌ وإنّ بكاءك آستغرام

لمـا يستطيع الإنسان أن يذكره له فى غير قليل من الحب والإعجاب .

كما أن ذلك التلاحق فى الأبيات، والتماسك بين المعانى، مظهر من مظاهر تطور الشعر عند أبى تمام ، حتى إن الإنسان ليجد فيها شيئا يشبه القصة ، ولكنها قصة نفس .

(ب) التسلسل الفكرى ووحدة القصيدة : هـذا التسلسل الفكرى فى القصيدة ، لم يقف أثره عند هذا الحد المعنوى ، فى ربط أجزاء القصيدة بعضها ببعض ، بل تعداه إلى أثر لفظى خرج بوحدة الشعر العربى التقليدية ، وهى البيت ، إلى وحدة أوسع ، هى القصيدة ؛ فترى أبا تمـام يأتى بالمبتدأ مثلا فى بيت، وبالخبر بعده بأبيات كثيرة ، لأن التلاحق المنطقى للمعانى فى القصيدة يقتضى ذلك . فيقول :

وأنت وقد مَجَّت خراسانُ داءها وقد نَغِلتْ أطرافُها نَغَل الجلْدِ

وأوباشُها خُزْرٌ إلى العَربِ الأولى لكيما يكونَ الحرُّ مِنْ خَوَل العبد

ثم يمضى فى تفصيل هذه الحال فى خمسة أبيات أخرى ، حتى إذا فرغ جاء خبر المبتدأ :

ضممتَ إلى قحطانَ عدنانَ كلَّها ولم يجدوا إذ ذاك مِنْ ذاك مِنْ بُدِّ

(ج) كثرة المعانى المخترعة عند أبى تمـام :

كما أن هذا التفكير الدائم، والنظر فى الأشياء والأحداث والعواطف ، جعل شعر أبى تمـام مسرحا لمعانٍ لم توجد فى شعر غيره .

ولقد تتبع القدماء — ولهم ما كان لهم من إحاطة بالشعر، ووقوف عنده بما لا يتهيأ لنا الآن — معانى الشعراء : ما آخترعوا منها، وما نقلوا عن غيرهم، فكان أوفرهم حظا منها أبو تمـام . فيقول آبن الأثير [١] : " وقد قيل : إن أبا تمـام أكثر الشعراء المتأخرين آبتداعا للمعانى . وقد عدت معانيه المبتدعة ، فوجدت ما يزيد على عشرين معنى ، وأهل هـذه الصناعة يكبرون ذلك " . ثم يقـول " فأما ماورد لأبى تمـام .

(١) فمن ذلك قوله :

يأيها الملكُ النائِى برؤيتـهِ وجُـوده لِمُراعِى جُودِه كَثَبُ

ليس الحجابُ بمقصٍ عنكَ لِى أملا إن السماء تُرَجَّى حين تحتجب

(١) المثل السائر ص ١٩٢ .

(٢) وكذلك قوله :

ولكنْ دارةُ القمرِ ٱستتمتْ   فدلتنا عـلى مطرٍ قـريبِ

(٣) وكذلك قوله فى الهجاء :

وأنت تُدير قُطْبَ رَحًى علياً   ولم يُـرَ لِلرَّحا العلياءِ قُطْبا
تَرى ظَفَـرا بكل صِراعِ قِـرنٍ   إذا ما كنتَ أسفلَ منـه جَنْبا

(٤) وكذلك قوله :

وإذا أراد الله نشرَ فضيـلةٍ   طُوِيتْ أتاح لهـا لِسانَ حَسُودِ
لولا ٱشتعالُ النـارِ فيما جاورتْ   ما كان يُعرفُ طِيبُ عَرْفِ العودِ

(٥) وكذلك قوله :

لا تُنـكِروا ضربِى له مَنْ دونَهُ   مَثَلا شرودا فى النـدى والباسِ
فاللهُ قـد ضرب الأقلّ لِنـورِهِ   مثلا مِنَ المِشكاة والنبراسِ

(٦) وكذلك قوله :

لا تنكرِى عَطَلَ الكريمِ مِن الغِنى   فالسيلُ حَرْبٌ لِلمكانِ العـالى

(٧) وكذلك قوله فى الشيب :

شُـعْلةَ فى المفارِق ٱستودعتني   فى صميمِ الفـؤادِ ثُكْلاً صميما
تستثير الهمومَ ما ٱكْتَنّ مِنهـا   صُعُـدًا وهى تستثيرُ الهموما

فالبيت الثانى من المعانى المخترعة، وقد تفقه فيـه ، بجعله مسألة من مسائل الدور ، وهذا من إغراب أبى تمـام المعروف . وهذا القدر كاف من جملة معانى فانا لم نستقصها هنا " .

وفى مكان آخر(١) يذكر له من المعانى المبتدعة قوله فى وصف مصلّبين :

بكَروا وأسروْا فى بطونِ ضـوامِرٍ   قِيـدتْ لهـم مِن مَرْبَـطِ النجّارِ
لا يبرحون ومَنْ رآهم خالَهُـمْ   أبدا على سَـفَرٍ مِن الأسفارِ

ثم يقول : وهذا المعنى مما يعـثر عليه عند الحوادث المتجددة . والخاطر فى مثل هـذا المقام ينساق إلى المعنى المخترع عن غير كبير كلفة ، لشاهد الحال الحاضرة . وكذلك قال فى هذه القصيدة فى صفة من أحرق بالنار :

(١) نفس المصدر ص ١٨٧ .

ما زال سرُّ الكفرِ بين ضلوعه حتى اصطلى سرَّ الزناد الوارِى
نارًا يساور جسمه من حرّها لهبٌ كما عصفرتَ شقَّ إزارِ
طارت لها شُعَلٌ يهدّم لفحُها أركانه هدمًا بغير غبارِ
فصّلن منه كلَّ مجمع مفصلٍ وفعلن فاقرةً بكل فقارِ
مشبوبةٍ رُفعت لأعظم مشركٍ ما كان يرفع ضوءها للسارِى
صلّى لها حيًا وكان وقودها ميتًا ويدخلها مع الفجّارِ

هذا ما عدده له ابن الأثير، على أنه بعض المعانى التى ابتدعها، ولم يسبقه أحد إليها؛ وقد كانوا يعملون فى حدود لا نعمل فيها نحن الآن. فكانوا يجتهدون فى حصر المعانى، وما قيل من الشعر فى كل معنى، وبذلك يعرفون ما وقع عليه الشاعر من جديد معنى. وليس لنا اليوم هذه القدرة على إحصاء المعانى المبتدعة، إذ لم تتوفر لنا آلتها من حفظ ورواية.

(د) مظهر من مظاهر التجديد: كما أن هذه السنة، فى تقدير المعانى بجدّتها، قد انتسخت عندنا، فنحن الآن أكثر تقديرا لما يجلو لنا شيئا من خفايا نفوسنا، ويصور لنا بعض ما نحسه، وأبو تمام فى هذا جديد، نجد فى شعره صدى لما فى نفوسنا فى عصرنا هذا، البعيد عن عصره، والغريق فى المادّية، فنحن نصيخ إليه حين يقول:

رقيقُ حواشى الحِلم لو أنّ حلمه بكفّيك ما ماريتَ فى أنه بُردُ

مع أن أهل عصره لم يقبلوا منه هذا الوصف للحلم. فيقول الآمدى عنه: "والخطأ فى هذا ظاهر، لأنى ما علمت أحدا من شعراء الجاهلية والإسلام وصف الحلم بالرقة، إنما يوصف الحلم بالعظم، والرجحان، والثقل، والرزانة، ونحو ذلك". كما أنه يعترض على البيت اعتراضا آخر فيقول: "وأيضا، فإن البُرد لا يوصف بالرقة، وإنما يوصف بالمتانة، والصفاقة، وأكثر ما يكون ألوانا مختلفة".

ذلك أن من قبل أبى تمام أدركوا الناحية المادية فى الحلم، ومظهر الحليم الهادئ الرزين الثابت. أما أبو تمام ففيه هذا الحس الشعرى، الذى يدرك الجمال النفسى فى الحلم. ذلك اللون السامى من ألوان النفس، الذى يقع فى القلب ولا يقع تحت العين، فوصفه بعد أن أدركه، وصفا خالف فيه طريقتهم.

أما استعمال كلمة "البرد" فى غير معناها الأصلى، فيمكن أن يتجوز فيه بانتحال لين الحضارة مخففا لنقل اللفظ إلى غير مدلوله الأول، جريا مع الحياة بعد انتقالها من طور البداوة إلى طور الحضارة. ولقد أشرت إلى نقل اللفظ عن دلالته، فى الكلام على "القدماء والمحدثين".

فيكون لأبي تمام في هذا البيت الواحد ثورتان لم يرضهما عصره : الأولى على تصوير المعنى ، والثانية على آستخدام اللفظ . وهذا الاستعمال للفظ "البُرْد" قد تبعه فيه تلميذه البحتري ، غير عابىء بنقد الناقدين ، لأنه كان قريب حس بالحياة منه . فقال :

وليالٍ كُسِين من رِقَّةِ الصـيف خَيَّلْن أنهنَّ بُـرُودُ

* * *

(هـ) إحساسه بجمال الطبيعة، وميله إلى وصفها : ومن مِنا لا يطرب لوصفه الربيع، ولا يهتز عطفاه؟ حين يسمع قوله :

غَـنَّى فشاقـكَ طائر غـرِّيدُ ... لمَّا تـرنم والغصونُ تَميـدُ
سـاقٌ عـلى سـاقٍ دعا قُمْـرِيَّةً ... فدعتْ تُقاسِمـه الهوى وتَصيـد
إلفـان في ظـل الغصـونِ تآلفا ... والتفَّ بينهما هـوًى معـقود
يتطعمانِ بـريقِ هـذا هـذهِ ... مجّا ، وذاك بريقِ تلك معيـد
يا طائرانِ تمتـعا هُـنِّيتما ... وعِمَا الصباحَ فإنني مجهـود
أبكي وقـد تلتِ البروقَ مضيئةً ... من كل أقطـارِ السماءِ رعـود
وآهـتزَّ رَيْعانُ الشـباب فأشرقت ... لتهـلُّلِ الشـجرِ القُـرَى والبيـد
ومضت طواويسُ العراقِ فأشرقت ... أذنابُ مُشرِقـةٍ وهن حفـود
يرفُلْنَ أمثـالَ العـذارى طُـوَّفًا ... حـول الدُّوارِ وقـد تدانى العيد

فذلك هو الشعر الذي يصور حِسّنا لمثل هـذا الجمال، تصويرا لا تستطيع اليوم أقلام شعرائنا الواهنة أن تمس ناحية منه، مع مامضى على قوله من أحد عشر قرنا، كان يمكن أن تقيم بيننا و بينه حجابا أبديا، من الجمود والاستحالة .

وكما يشجي الإنسان آشتراكه مع أبي تمام في حسه، يشجيه فنه المجرد البعيد شيئا عن الحس الخاص، فإذا وصف أبو تمام الشيب بقوله :

شُعـلة في المفـارِق آسـتودعتني ... في صميـمِ الفـؤادِ ثُكلا صميـما
تستثير الهمـومُ ما آكتنَّ منهـا ... صُعُـدا وهي تستثيـر الهمـوما
غُـرَّةٌ بُهْمَـةٌ ألاَ إنما كنـ ... تُ أغـرّا أيامَ كنتُ بهـيما
دِقـةٌ في الحيـاةِ تُدْعَى جـلالا ... مِثـلَ ما سُمِّي اللديغ سـليما

لم يستطع الإنسان إلا أن يعجب بهـذا الفن ، وأن يستشعر هزة رقيقـة " لشاعرية الفكرة " إن صح هذا التعبير .

(و) ميل أبي تمـام إلى تناول الناحية النفسية : كما أن فى فن أبي تمـام دائمـا ميلا إلى الناحية النفسية، وتقـديرا لتلك الحياة القوية ، التي تجرى وراء الصور والأجسام الماثلة من الخلائق . وهو لا يعبأ فى كثير من الأحايين بالجسم وضخامته ، قدر ما يعبأ بالروح، وبمنابع القـوى الغلابة المستترة فى الإنسان، والمسيطرة على قـدره . ويحس الإنسان فى نظراته هـذه عمقا ، ليس يشبه تلك النظرات المتخطفة من فوق السطوح . فيقول :

إذا دُجاها أحاطتْ بى أحطتُ بها ... قلبـا متى أسْرِ فى ظَلْمـائه يقِـدِ

ويقـول :

وارِى الفـؤادِ فلَوْ كانتْ بعزمتـهِ ... تذكَى المصابيحُ لم تحْبُ المصابيحُ

كأنه فى اجتماعِ الروحِ فيـهِ، له ... مِن كلِّ جارحةٍ فِى جِسـمِهِ روح

ويقـول :

تجِـد صِـلًّا تخال بكل عضـوٍ ... له مِن شـدةِ الحركاتِ قلبـا

ويقول فى وصف ملك الروم فى هربه :

مضى مدبِرا شَطْرَ الدَّبورِ ونفسُـه ... على نفسِهِ مِن سوءِ ظن بها ألْبُ

ويقـول ، وما أروع هذا الأدب النفسى :

إنى لأستحيِي يقينِيَ أنْ أرَى ... لِشكِّى فى شيءٍ علَيْـهِ دليـلُ

* * *

وفنه على العموم هادئ، ليس بالصاخب ولا العنيف، لا يشبه دق الطبول، ولا دوى الرعود . ولكنما هو أشبه بالابتسامة العميقة الحلوة ، أو النغمة العذبة الفاتنة ؛ وهدوء فنه هـذا تجده فى كل حالاته : فى غضبه ، وفى رضاه ، وفى فرحه، وفى حزنه، وفى يأسه، وفى أمله ، فيه حلاوة النفس، تدرك واضحة فى مثل قوله :

وإذا عِلْمُ مجلِسِـه مَـوْرِدٌ ... زُلالٌ لِتـلك العُقـولِ الظِّماءِ

تحول السكينةُ دونَ الأذى ... به، والمـروءةُ دونَ المِـراءِ

وفى مثـــل قوله :

مَنْ لى بإنسانٍ إذا أغضبتُـهُ وجَهِلتُ كان الحلمُ ردَّ جـوابِهِ
وإذا طربتُ إلى المدامِ شربتُ من أخلاقـهِ وسكِرتُ مِن آدابِهِ
وتراه يُصغي للحـديثِ بِسمعِهِ وبقلبِــهِ ولعـلّه أدرى بهِ

وفى مثـــل قوله :

ممتـلِىءِ الصـدرِ والجوانحِ من رحمـةٍ مملوءَهن مِن حَسَـدِه
يأخذُ مِن راحةٍ لِشُـغْلٍ ويسْـ تَبقِي ليَبْسِ الزمانِ مِن ثَأَدِه
فهـو لو آستطاع عنـد أسعدِهِ لحزَّ عضـوا مِن يومِه لِغَـدِه
إذ منهمُ مَنْ يعُـدُّ ساعتـه الـ ـطُّلقَ عِيـارا له عـلى أبَـدِه
ألوى كثيرِ الأسى على سودَدِ الـ ـعَيْشِ قليـلُ الأسى على رَغَـدِه
قريحـةُ العقـلِ مِن مَعـاقلِهِ والصبر فى النائبـاتِ مِن عددِه

و بمثل هذه الأبيات كان أبو تمام يسمى حكيما . وهذه ونظائرها عند أبي تمام أثر من آثار التجربة، وبلاء الأيام، والثقافة الواسعة .

(ز) آعتماد فن أبي تمام على الواقع والحقيقة : وفن أبي تمـام فى مادته يعتمد على الحقيقة، يتناولها فيكسوها بفنه كسوة تجعلها فى حال أشبه بالمتخيلة المبتكرة، ولا داعى للاطالة هنا فى ذلك، فقد تحدثت عن هذه الناحية أحاديث كثيرة، فى تاريخ حياة شعر أبي تمـام وحياته . ولكني أشير إلى مثلين صغيرين، يريان كيف كان أبو تمام يعتمد على الحقيقة فى أدق معانى قصائده وأصغرها (١) . يقول فى وصف فتح عمورية للمعتصم :

رَمَى بِكَ اللهُ بُرْجَيْهـا فهـدَّمها ولـو رَمَى بك غيرُ اللهِ لم تُصبِ
مِن بَعْـدِ ما أشَّبوها واثقين بِها واللهُ فتـاحُ بابِ المَعْقِلِ الأشِبِ

---

(١) من ذلك أيضا ما ذكره المسعودى فى مروج الذهب : ج ٧، ص ١٣٨، ١٣٩ طبعة باريس . يقول عن المازيار الثائر بطبرستان بعد أن أخذ : " وصلب إلى جنب بابك ... ومالت خشبة مازيار إلى خشبة بابك، فتدانت أجسامهما . وقد كان صلب فى ذلك الموضع باطس، بطريق عمورية، وقد آنحنى نحوهما لميل خشبته . ففى ذلك يقول أبو تمـام من كلمة له :

ولقد شفا الأحشاء من برحائها أن صار بابك جار مازيار
ثانيه فى كبد السماء ولم يكن لاثنين ثان، إذ هما فى الغـار
فكأنمـا آنحنيـا لـكيما يطويا عن باطس خـبرا من الأخبار"

وقال ذو أمرهم : لا مرتَعٌ صدد ... للسَّارحين، وليس الوِرْدُ من كَثَبِ
أمانيّـا سلبتهُم نُجْـحَ هاجسِها ... ظُبَى السيوفِ وأطرافُ القنا السُّلُبِ
إن الحمـامَيْنِ من بِيضٍ ومن سُمُرٍ ... دَلْوَا الحياتينِ من ماءٍ ومن عُشُبِ

ومن استقراء وقائع التاريخ نجد أن هذا هو ما كان حقا . فقد كان حاكم المدينة يقول لجنده : " لا تخافوا فإن مدينتنا ممتنعة عالية ، لا ينالهـا العدو ، وليس بالقرب منا ما ترعاه خيولهم، ولا ماء يشربون منه " . وفى ابن الأثير : أن المسلمين قد لقوا ضيقا بقلة المـاء والمرعى . ولذلك يرد عليه أبو تمام بقوله :

إن الحمامَيْنِ من بِيضٍ ومن سُمُرٍ ... دَلْوَا الحياتينِ من ماءٍ ومن عُشُبِ

ولقد ذكرت قبلا، فى حياة أبى تمام، كيف أخذ بابك بنو سُنْباط ، من بطارقة إرمينية . فإذا تحدث أبو تمام عن أخذه لم ينس ذكرهم فيقول :

تقنّصـهُ بنـــو سُـنْباطَ أخذا ... بأشراكِ المـواثقِ والعهُــودِ
ولو لا أنَّ ريحك ذرّبتهـم ... لأحجمتِ الكلابُ عنِ الأسودِ

وهو لا ينسى شيئا فى سبيل الانتفاع بالحقيقة، حتى ذكر الأيام التى حدثت فيها الأحداث ، فتكثر فى شعره كثرة ملحوظة . فيقول فى رثاء عُمَير بن الوليد، وقد مات يوم الثلاثاء كما فى الكِندى .

فيـا يـــومَ الثلاثاءِ اصطبحنا ... غداةً منـــك هائلةَ الـــورودِ
ويا يـــوم الثـلاثاءِ اعتمـدْنا ... بفقـدٍ فيـك للسَّـندَ العميـدِ

ويقول فى خالد بن يزيد :

نِعـــم لِـــواءُ الخميس أبْتَ به ... يومَ خميسٍ عالِي الضُّحَى أفِـدِه

ويقول فيه أيضا :

جَذَبْتُ نداهُ غُدوةَ السبتِ جَذبة ... فخـرّ صريعا بين أيدى القصائدِ

ويقـــول :

فالبـــذُّ أعـ[illegible]ـيـه الردى أ كلٌ من الآكالِ
ألْوَتْ بـ[illegible]ـوم الخميس كتائبٌ ... أرسلتـهُ مثـلا من الأمثالِ

هذه هى السمات العامة، التى تطبع شعر أبى تمـام، ولا تخلو قصيدة من قصائده من آثارها .

(ح) نهج القصـيدة : أبو تمـام محافظ فى أغلب قصائده إذا نحن نظـرنا إلى نهجها . فهو يبدأ أكثر مدائحه بمخاطبـة الأطلال ، والتحسر لمـرآها ؛ ثم ينتقل من ذلك إلى غزل يختلف طولا وقصرا ، يصف فيه حبيبته وصفا جسمانيا أو معنويا ، ثم يخرج من هذا إلى وصف الرحلة، إن كان قد رحل إلى ممدوحه ، فإن لم يكن رحل إليـه ، لم يعرج عليها . ثم يخرج من هـذا إلى ممدوحه، فيأخذ فى مدحه، ثم يأخذ فى طلب عطائه، طلبا سافرا أو متواريا، وكثيرا ما يختم قصيدته بوصف شعره والفخر به . هذا هو النمط الغالب على قصائده ، وهو لا يختلف فيه إلا قليلا عن نمط القصيدة العربية التقليدى . وقد يحيد عن هذا شيئا، فيبدأ بوصف الخمر أو الطبيعة، وقد يجمع بين هذين النمطين فى قصيدة واحدة، وفى أبيات متقاربة .

(ط) أبو تمـام شاعر البطولة الإسلامية : ولكنه ، أحيانا ، فى المواقف التى تأخذ بالنفس ، وتبلغ فيها العاطفة أقصى جيشانها ، فلا يكون العقل حرا فى ترسّم الطريق المتواضَع عليها ، يندفع فى الابتداء بمـا يجيش بنفسه ، فيهجم على غرضـه هجوما لا هوادة فيه ، لا يمهـد له ، قويا منصبا كالسيل الجارف ، يحمل الخِصْب والصخر جميعا ، فالإنسان منه بين شاق عسير ، وحلو غزير ، وهو بين ما يرضيه منه ، و يسخطه عليـه . فنراه فى قصيدته فى فتح عمّورية ، وقـد مضى ما أحاط بهـذه الموقعة من أحداث تأخذ بمُجَامع النفس ، يبدأ قصيدته هاجما على غرضه هجوما :

السيف أصدق أنباء مِن الكتبِ   فى حدّهِ الحـدّ بين الجدّ واللعِبِ

ثم يمضى فى ذلك حتى ينتهى ، فلا غزل ولا أطلال . وهو كذلك فى قصيدته التى قالها فى وصف إحراق الأفشين :

الحـقُّ أبلجُ والسـيوف عَوارِ   فحـذارِ من أسدِ العرينِ حَذارِ

ولكنه فى أغلب قصائده ، كما قلت ، محافظ على نهج القصيدة التقليدى ، إلا أن هذا القالب القديم يحوى مادة جديدة، تبين عن خفايا نفس عميقة، وعقل قوى مبين . والغزل الذى يبتدئ به أبو تمـام ، ووصف الديار ، فن يحبه ويقدره ، حتى ليضرب به المثل فى شعره ، فيقول :

طاب فيهِ المديح والتذ حـتى   فاق وصـف الديارِ والتشبيبا

ولقد ذكرت من قبل مثلا من غزله ، و بينت كيف يتماسك ، وكيف يسود فيه نظر وتأمل فى العاطفة . وقد يلجأ فى هـذا الغزل إلى الأساطير ، والأقاصيص القديمة ، يستعين بها على توضيح الصورة التى يقصد إليها ، على نحو استفادة الآداب الغربية الحديثة من الأساطير اليونانية القديمة، فيقول :

بيضٌ يدرنَ عيونَهنّ إلى الصِّبا   فكأنهن بها يُدِرنَ كؤوسا
وكأنما أهدَى شقائقَهُ إلى   وَجَناتِهِنّ ضُحًى أبو قابوسا
لولا حداثتُها وأنى لا أرى   عرشا لها لحسِبتها بِلقِيسا

وهذا الاقتران بين الضحى وورد الخدود ، وما هناك من علاقة بين ضوئه وسطوع حمرة الشقائق ، وما فى تلك المقابلة بين بياضه وصفاء نوره ، مع حمرة الشقائق ، وبين حمرة الخد يحيط بها بياض بَشَرة بيضاء صافية ، مثل من الأمثلة ، يرى أى جهد كان أبو تمام يبذله فى تكوين الصورة ، وإلى أى مدى كان يوفق ؛ كما أن فى إهداء النعمان شقائقه إلى أولئك الفتيات ، معنى جديدا يدخله أبو تمام على الاجتماع الاسلامى ، ولعله اقتبسه من أدب غير الأدب العربى ، وبخاصة إذا نحن لاحظنا أن النعمان هو حامى هذه الزهرات ، وهو ما يمكن أن يشبه بمعنى تلك الآلهة اليونانية ، التى يمثل وراء كل منها معنى يقرب من هذه المعانى . وفيها أيضا ما يرى مقدار استفادة أبى تمام فى غزله من التاريخ ، والقرآن ، وحالةِ الجماعة فى عصره .

من هذه السبيل الجديدة وأشباهها ، وبهذا الخيال الخصب كان أبو تمام يملأ هذه القوالب القديمة .

(ى) القَصص : فإذا هو فرغ من هذه الممهدات ، انتقل إلى القول فى ممدوحه ؛ وفى هذا المدح لون آخر جديد من ألوان الفن . وهو القَصص . ولا أقصد بهذا أن أبا تمام هو واضع فن القصص الشعرى ، ولكنما أقصد أنه انتفع به فى المدح ، انتفاعا واسع النطاق ، بعيد المدى ، حتى إن صورة ممدوحه لتستحيل فى يده إلى صورة بطل من أبطال تلك الملاحم القديمة ، التى حُرِمها الأدب العربى . و بذلك يخرج المدح من حيِّزه الخاص الذى تضيق به النفس الى حيِّز أوسع وأهم . كذلك هو فى مراثيه وفى هجائه ؛ وهو فى سبيل ذلك يعمد إلى التاريخ ، فيأخذ منه حاجته ؛ متمثلا بالماضى ، أو مقتبسا مادة لشعره من الحاضر الملابِس لحياة ممدوحه ؛ فإذا هو أراد مدح المعتصم بعد أخذ بابك قال ، قصيدته :

آلتْ أمورُ الشركِ شرمآلِ   وأقرَّ بعد تخمّطٍ وصِيالِ

فتسمع فيها قصة بابك ، من مبدئها إلى منتهاها ، فى غير جور على التاريخ . والقارئ لا يزال يتبعه فيها ، حتى ينتهى منها فى غير كلال ولا سأم ، مع طولها ، لحلاوة القصة .

وكذلك إذا مدح أبا سـعيد محمد بن يوسف ، لم يقف عند وسـيلة غيره فى مدح ممدوحهم . وإنما هو يصف الجيوش وحربها مع الروم، ومع بابك .

وإذا رثى محمد بن حُميد الطائى، وجدته يرثى بطلا من أولئك الأبطال، الذين تقبل النفس على قراءة تاريخهم، لتسمو ببطولاتهم إلى لون من ألوان الحس الرفيع، يخلد به الشعر، ولا تحس فيه مذلة المدح وخصوصيته . وينصح لتغلب أن تطيع مالك بن طوق، فيقول من قصيدته :

سلِّمْ على الرَّبْعِ مِن سَلْمى بذى سَلَمِ عليه وسمٌ مِن الأيامِ والقِـدمِ

* * *

لا تجعلوا البغىَ ظهرا ، إنه جمل مِن القطيعةِ يرعَى وادِىَ النقمِ
نظرتُ فى السِّيَرِ اللائى خلتْ فاذا أيامـه أكلت باكورةَ الأممِ
أفنى جَديسًا وطَسْما كلَّها وسَطا بالأنجمِ الزُّهرِ مِن عادٍ ومِن إرمِ
أردَى كُليبا وهمَّاما وهاج به يومَ الذنائبِ والتحلاقِ لِلَّـمِمِ

ثم يسير على هـذا النمط . وهذا النوع من القصص ، قد غلب على شعر أبى تمام فى آخر أطوار شعره ، من سنة ٢٢٠ حتى مات . وهو لا ينعدم فى شعره قبل ذلك ، ولكنه أقل وضوحا ، وقد أفاد قصائده خِصبا وطولا ، وجعل قراءتها لذيذة ممتعة .

كما أن انتحاء أبى تمام هذا المنحى ، قد أفاد القصة الشعرية فى الأدب العربى فائدة عظيمة ، فوهب لها أوزانا مكتملة ناضجة، وأسلوبا رصينا ، لا يشبهان فى شىء أوزان الأقاصيص العربية ، التى نظمت بعد أبى تمام، ولا أسلوبها ، كالصادح والباغم . كما أهدى إليها وحدة القافية، ولمحات عميقة إلى صور النفس وأحاسيسها، التى تختلف بآختلاف ما يطرأ على الشاعر من آنفعالات .

ففن القصص الشعرى العربى قد طفر على يدى أبى تمام طفرة لم تقصد لذاتها، ولكنها مع ذلك شىء واقع لا نستطيع إنكاره .

٢ — الصـــــورة

(أ) المقصود بالصورة : هـذا ما أمكننى أن أستخلصه من نظرة أبى تمـام خاصة إلى قصيدته فى جملتها . أما فيما يختص بجزئيات هذا الكل فأول ما يسترعى الخاطر فيها هو الصورة . إن أبا تمام يطلبها، ويغرق فى طلبها إغراقا ، لا آعتدال فيه ولا قصد . وأقصد بالصورة كل محاولة

من محاولاته إبرازَ معنى، أو كائن، أو حدث، سواء كان ذلك عن طريق الاستعارة، أو التشبيه، أو الحديث المطال، أو غير ذلك من وسائل الإبانة عن أمر من الأمور، على وجه من وجوه القول.

(ب) الصورة فى أطوار شعره الأولى جاهلية : والصورة عند أبى تمام فى أوائل شعره، تميل إلى الأسلوب الجاهلى، فإذا وصف حبيبته فى أوّل قصائده قال :

وخُوطِيّـةٍ شمسيـةٍ رَشَئيّـةٍ ... مهفهفـةِ الأعلى رَداحِ المحقَّبِ
تُصدِّعُ شملَ القلبِ مِن كلِ وِجهةٍ ... وتَشعَبُهُ بالبثِّ مِن كل مَشْعبِ
بمختبِلٍ ساجٍ مِن الطرفِ أحورٍ ... ومُقْتبَلٍ صافٍ مِن الثغرِ أشنبِ
لوآنّ امرأ القيسِ بنَ حُجْرٍ بدتْ له ... لمـا قال : مُرَّا بى علَى أم جُندبِ

(ج) الصورة فيما يلى ذلك : وفى قصيدته التى قالها فى آل بيت الرسول :

أظبيةَ حيثُ استنتِ الكُثُبَ العفرُ ... رويدكِ لا يغتالُكِ اللـومُ والزجْرُ

وقد قالها، كما يخبرنا فيها، قبل أن يبلغ السابعة عشرة، نراه يعمد إلى التشبيه الطويل، وفن أقرب إلى الجاهلى، مع شىء من التهذيب استدعاه عصره، فيقول :

كأمِّ الجوارِ استودعتْـهُ خميـلةً ... تردَّدَ فيها النبتُ وازدوجَ الزهرُ
فغيَّبَـهُ عنهـا قَـرىً بوهْـدةٍ ... أحلَّ به أعْباءَ أحمـالِهِ القَطْـرُ
فحنت جنونا واستعاضَتْ مِن الرُّقَى ... فنـونا وما تُغْنِى المـذلةُّ والذِّكرُ
كُلَى وكَلَا ثم استحالتْـهُ فاصـلا ... مِن الروضِ تَزهاه حُقوفٌ نقاً عفُرُ
رغا إذ رآها فاستجابتْ مُشِيحةً ... عليه ومِنها الرَّكلُ والزَّبنُ والطَّحْرُ
فخـر صرِيعا واستمرت بقسـوةٍ ... ترودُ وتَقرو الأمكناتِ التى تقرو

وهو أطول تشبيه فى شعر أبى تمـام كله. وهو ملىء بالشاعرية، وإن تكن عناصره مستخلصة من حياة بادية. كما أن فيها صورة أخرى تهز المشاعر يقول :

فكم ليـلةٍ قضَّيتُهـا متململا ... إلى أنْ زقتْ أطيارَ سحْرتِهِ الزقْرُ
كأن نجـومَ الليـلِ فى أُخْرياتِهِ ... عيونٌ له نادَى بتغميضها الفجر
كأن سواد الليلِ ثم اخضِراره ... طيالِسةٌ سودٌ لهـا كُفَفٌ خضر

وهى صورة مليئة بالحياة، تجد فيها المشبه والمشبه به فى حركة، وليسا فى سكون، مما ينشأ عنه تركّب وجه الشبه؛ فهو لا يشبه النجوم بالعيون فحسب، ولكن يشبه النجوم إذ تخبو فى أواخر الليل بما سطع عليها من ضوء الفجر، بالعيون تغمضها يد.

وهذه الصورة تأخذ فى التهذب والاكتمال على الأيام. فنسمعه يقول من قصيدته فى الأفشين فى وصف الجيش :

وقد ظُللت عِقبانُ أعلامِهِ ضُحًى   بِعقبانِ طيرٍ فى الدماءِ نواهلِ
أقامت مع الراياتِ حتى كأنها   مِن الجيشِ إلا أنها لم تقاتلِ

حتى إذا كانت أواخر أيامه سمعناه يقول لخالد بن يزيد بن مَزْيد :

نِعم لِـواءُ الخميسِ أُبتَ بـهِ   يومَ خميسٍ عالِى الضُّحَى أفِدِهْ
خلتُ عُقابا بيضاءَ فى حُجُرا   تِ الملك طارتْ مِنه وفى سُدَدِهْ
فشاغب الجـوَّ وهو مسكنُهُ   وقاتل الريحَ وهى من مَـدَدِهْ
ومرَّ تهفـو ذؤابتاه عـلى   أسمـرِ متْنٍ يومَ الرغى جَسِدِهْ

د — منابع الصورة عند أبى تمام : والصورة عند أبى تمام مستخلصة من حياته، وحسه، وملاحظته. وتراها أحيانا بنت الملاحظة الدقيقة، والعلم بطبائع الأشياء، كقوله فى هجاء ابن المعذل لما هجاه :

أقدمتَ ويلكَ مِن هجوِى على خطرٍ   كالعَيْرِ يُقدِم مِن خوفٍ على الأسدِ

ويقولون إن من طبيعة العَيْرِ أن يقدم على الأسد حقا إذا هاجمه، من خوفه منه. ويقول فى وصف ممدوحه :

هو السيلُ إنْ واجهتَه انقدتَ طوعَهُ   وتقتادُهُ مِن جانبيْهِ فيتبـع

وكقوله عن نفسه :

مسلَّط حيث لا سلطانَ لِى ويدى   مغلولةُ النفعِ والسلطانُ سلطانى
كالنارِ باردةٌ فى عُودِها ولها   إنْ فارقته اشتعالٌ ليس بالوانى

وكقوله :

عندى مِن الأيامِ ما لو أنه   أضحى بشاربِ مُرْقِـدٍ ما غمَّضا

وكقوله فى تصوير الربيع :

غيثانِ فالأنواءُ غيثٌ ظاهِرٌ لك وجهُهُ والصحوُ غيثٌ مضمَرُ

وما أجمل هذا البيت، وأصدقه فى الدلالة على ثقافة أبى تمام العميقة، وحسن فهمه لطبائع الأشياء!

هـ — جزئية الصورة : ولكن غلو أبى تمـام فى طلب الاستعارة، والمجاز، والتشبيه، وهذه الوسائل المنمقة، من وسائل الأداء، قد أوقعه فى كثير من الاضطراب، فى كثير من الصور. فجعلها مكوّنة من أجزاء مختلفـة، لا تناسـق بينها ولا التئام. كما فى قوله فى عيّاش بن لهيعـة الحضرمى فى مصر. وهى من أوائل شعره :

سرّى رِداءَ الهـوى فى حِين جِدّتِه واهًا له منـه مَسْرُوًّا وملبـوسا

لو تشهدينى أقاسِى الدمعَ منهمِـرا والليلَ مرتَتِجَ الأبوابِ مطموسـا

أستنبتُ القلبَ مِن لَوْعاتِهِ شجـرا مِن الهمومِ فأجنتها الوساويسا

وهى أبيات ثلاثة متصلة المعنى، تدور حول هواه. فهو كما يقول قد طرح رداء الهوى الجديد، وهو حزين ملتاع، يقاسى الدموع فى الليل الأسود المظلم، مهموما تخلق همومه الوساوس، ويتمنى لو رأته حبيبته حتى ترحم هذه الدموع.

وهى معان متصلة، تصف حالة فى نفسه، ذات أصل واحد؛ قد اصطنع فى تصويرها صورا عديدة. ويكفى الوصل بين هذه الصور، ليتحقق ذلك الاضطراب الغريب فى تصوير هذه الحال.

ذلك أنه رجل يلبس ثوبا جديدا من الحب، يخلعه عنه؛ ولكنه لا يزال يتعذب. هذا الرجل ذو الثوب المخلوع، ذو قلب كأنه الأرض الخصبة، ترويها أمطار من اللوعات، فتنبت فيها أشجار من الهموم، ثم لا تزال بها هذه الأمطار تلح عليها حتى تنتج ثمـارا من الوساوس.

ويكون مجموع الصورة رجل يلبس ثوبا وتنبت فى قلبـه أشجار تنتج أثمـارا وهو يبكى. فاذا أضفنا صورة أخرى معترضة، وجدناه يبكى فى سجن من الليل مغلق الأبواب، أسود.

ولا شك فى أن استخلاص الحكم على التشبيه والاستعارة وما شاكلها، على هذه السبيل قسوة، لا على أبى تمـام وحده، ولكن على كل شاعر. إلا أن أبا تمـام كان يغلو فى هذه الطريق. وكان بها يحيل المعنى المقصود إلى أجزاء يتضح كل منها، ولكن يعسر على العقل، فى التعثر بين هذه الأجزاء الواضحة، وفى الانتقال من أحدها الى الآخر، أن يتضح له المعنى العام.

فهذه التشبيهات التي تتعـدد ولا تتناسب، تزيد الحس بالجزئيات، وتضعف الحس بالكل، ضعفا لا يخففه إلا إعمال الذهن، والجمع في فراغ بال وتؤده بين أشتات الأجزاء. وفي ذلك ما فيه من إضاعة الوقت. وأغلب الحال أن يتغاضى القارئ، في غير آنتباه، عن إدراك الكل بعد إدراك الأجزاء، وبذلك تضيع فائدة، وينعدم قسط ضخم من الجمال.

* * *

ومن آثار الغلو في طلب الاستعارة في شعر أبي تمـام، ذلك الزلل فيما يستكره أحيانا، وهـذه عاقبة الكلفة. ففي كثير من آستعاراته وتشبيهاته، صور لا تهش لهـا النفس، وتكاد تذهب مثلا في شناعتها، كقوله في ممدوحه:

ما زال يَهْـذِي بالمكارمِ والعُـلا حـتى ظننـا أنـه محـمومُ

وكقوله أيضا:

إناءُ مجـدٍ مَـلآنُ بُـورِك في صريحـهِ لِلعـلا وفي زَبَـده

وكقـوله:

فَلويتَ بِالمعروفِ أعنـاقَ الورى وحطَمْتَ بِالإنجـازِ ظهرَ الموعِـدِ

يقول الآمدي[1] "حطم بالإنجاز ظهر الموعد. آستعارة قبيحة جدا، والمعنى غاية في الرداءة. فإن الإنسان يصحح الموعد بالإنجاز، وليس يحطم ظهره. وهو القائل:

إذا وعَـدَ آنهلَتْ يـداه فأهْـدَتا لك النجح محمولا على كاهل الوعد

وكاهل الوعد إذا حمل بالنجح، فأحْرِ به أن يكون صحيحا ... لا أن يكون محطوما" ولست متحمسا كثيرا لعبارة الآمدي عن عدم موافقة الآستعارة للمعنى، على الوجه الذي ارتآه، فإن التخريج العقلي كفيل بقبول هذا الوجه، الذي لم يقبله الآمدي، ولكنني أتفق معه على قبح هذه الاستعارة.

ولو صح أن أبا تمام قد أراد في استعمال كلمة الوشاح معناها الأصلي في البيت:

مِن الهيفِ لو أنَّ الخلاخيلَ صُيِّرت لهـا وُشُحا جالت عليها الخـلاخِلُ

لكانت آستعارة من أقبح الاستعارات. يقـول الجرجاني[2]: "أراد وصفها بدقة الخصر، فوصفها بغاية القصر والضئولة. لأن الوشاح يؤخذ من العاتق، ويوشح أحد طرفيه الصدر والبطن، والآخر الظهر، حتى ينتهيا إلى الكشح، ويلتقيا على الورك. وكيف حال من يجول الخلخال من عاتقها إلى

(١) الموازنة: ص ١١٩. (٢) الوساطة: ص ٧٣.

كشحها ؟ وهل تكون من البشر ، فضلا عن أن تنسب إلى الحسن " ؟ و يقول الآمدى " لقد جعلها جُعَلا " .

ولو صح ما أراه من أنه نقل لفظ الوشاح إلى معنى الحزام ، فان هـذا يخفف شيئا من قبح الصورة ، ولكنه لا ينقذها منه تماما . إذ أن هذا الكشح الذى يبلغ من نحولته أن يدور حوله الخلخال كشح قبيح أيضا .

* * *

هذه هى الصورة فى شعر أبى تمام فيها لمحات من أجمل ما ترتاح إليه النفس، وأخرى قبيحة . ولكنها كانت جميعا صورا لمعانٍ قد تكون واضحة الحدود فى نفسه، وقد تكون أثرا من آثار اضطراب حاله أو عقله، لما كان يشغله فى حياته المضطربة المعلقة فوق فوهة بركان . فلقد كان فن أبى تمام فى تفاصيله وأجزائه، وفى مجموعه، أثرا من آثارها، وصورة من انفعالاته بها .

ولكنها، الحسن منها والقبيح، يجرى عند جذورها ذلك المعنى الهادئ، المطمئن، الذى يمس أصول فن أبى تمام، والذى هو نتاج تكوينه النفسى، وفطرته التى فطر عليها . و إن الإنسان ليرى وصفه للجيش .

وقد ظُلِّلَتْ عِقبانُ أعلامِه ضُحًى ... بِعِقبانِ طيرٍ فى الدماءِ نواهـلِ
أقامت مع الراياتِ حتى كأنها ... مِن الجيشِ إلا أنها لم تقاتـلِ

ثم يرى قول أبى الطيّب فى هذا المعنى :

سحابٌ مِن العِقْبانِ يزحفُ تحتها ... سحابٌ إذا استسقت سقتها صوارِمه

فيدرك فرق ما بين النفسين . فالصورة عند المتنبي تقوم على الخيال، قيامها عند أبى تمام على الخيال أيضا . ولكنه الخيال الذى يقوم عند أبى تمام على ناحية الجمال فى الحياة، وعند أبى الطيب على ناحية القوّة والرهبة فيها .

هذه النفس تتدفع عراما، زخّارا، جارفا ؛ وتلك تنساب عذبة، هادئة .

الصورة عند أبى تمام تتألق ضياء وألوانا ، فالضحى بنوره، والرايات بألوانها، والدماء وحمرتها، والعقبان وقد نهلت من الدماء، بأجنحتها المنشورة ، وهدأتها فوق الرءوس لا تقاتل .

والصورة عند المتنبي سحاب من فوقه سحاب، ظلمات بعضها فوق بعض . هذا إلى ما عسى أن يثير ذكر الصوارم، تهتف بها الطير تستسقيها، وذلك الانعكاس فى الأوضاع بأن يسقى الأسفل الأعلى.

هـذا فرق ما بين النفسين الشاعرتين . نفس تعبـد الحياة فى هَوَج بالغ، وسرف فى الانفعال بظواهرها . ونفس تحب الحياة فى اتزان، وتقبلها كما هى فى غير اضطرار العاجز إلى قبولها .

وفن يلجأ إلى الابتسامة تعـلو الشفتين ، والبريق يلمح فى العينين ، ونظرة الألم الهـادئة التى تصيب من قلب الإنسان أكبر ما يعطيه إنسان من نفسه لغيره .

وفن آخر يلجأ إلى الصراخ والعويل ، وخمش الوجه ، واستدرار دمع الغـير ، بوسائل العنف . ولكن فى أعماقه أثرا من ألم حقيقى يمس النفس ، وفضلا من رجولة وقوة يدعو إلى لون من ألوان الإعجاب ، ربمـا كان يجرى فوق سطوح الحياة ، قبل أن يجرى عند أعماقها .

وكلاهمـا نوعان من أنواع الأحياء القـوية ، كل فى ناحيتها . وصـورتان مكبرتان لجوانب فى النفس ، لا يستطيع أحدنا التغاضى عنها ، لأنهـا فيه . ولكن قد يقوى جانب فيتميز ويغلب ، ويضعف جانب ، فيهن ويتوارى ، وليس ينعدم . فهو أيضا فى حاجة إلى إطفاء وارتواء .

ولقد عمدت من قبل فى أماكن متفرقة إلى مقارنة بين أبى تمـام وبين المتنبى ، وكنت أحب أن أفرد لذلك بابا ، لولا أنى وجدت ذلك عسرا إذا أردت إخراجه على وجه واف . إذ أن ذلك يستدعى وحده كتابا كاملا ، فإن كل شىء فى شعر المتنبى يمكن أن يرد إلى أصله فى شعر أبى تمـام . بل إن بعض أساليب أبى تمـام فى الحياة ، كان يحاكيه فيها تلميـذه المتنبى . فلم يكن إزاء هذا إلا الاكتفاء بتلك اللمحات العاجلة ، فى الموازنة بين الشاعرين كلما سنحت فرصة .

٣ — اللفـــظ

لفظ أبى تمـام مثل فنه ، نتاج عدة عوامل ، منها الموهوب ومنها المكسوب . ولقد تكلمت على المكسوب فى بابين — أحدهما "ثقافته" ، وثانيهما : "القدماء والمحدثون" . أما الموهوب فأظن أنى لم أمر بناحية من نواحى دراستى لأبى تمام إلا أشرت الى لون من ألوان نفس أبى تمام وكيانه .

(١) اللفظ عنده مظهر مركب نفسه : ولقـد تضافرت هذه العوامل على إنتاج فن مركب معقد ، حتى يستطيع أن يرضى كل مطالب هـذه الحياة المعقدة ، فى ذلك العصر الحافل . وكما كانت القصيدة فى مجموعها ، والصورة فى تفاصيلها ، أثرا من آثار هذا التكوين ، كان اللفظ كذلك . فهو عند أبى تمـام المـادة الأولى فى بناء قصيدته . وهو ممن يعتنون به ، وينصبون الوقت لتزيينه واختياره ، والنظر فى محاسنه وبديعه ، والتأنق فيه . لأنه تصوير لحياة أنيقة مترفة . وهو عنده إلى

ذلك مظهر من مظاهر تركّبه النفسي . فهو أحيانا يذتقيه رقيقا حلوا يسيل عذوبة ، لا جفاء فيه وإن كان غريبا ، وإن الإنسان ليسمع فى مثل هذه القصيدة من قصائده ما يشبه الموسيقى الرقيقة الرنين، الصافية الأنغام، رغم غرابة كثير من ألفاظها :

صَرْفُ النَّوَى ليس بالمكيثِ … يـنبثُ ما ليس بالنبيثِ (١)
هبت لأحبابنا رِياح … غير سواهٍ ولا دُثوث (٢)
بدورُ ليل التمام حسنا … عِين حُقوف ظِباءُ ميث (٣)
بين الأساوِرِ والخلاخيل والدماليج والرُّعوث (٤)
من كل رعبوبةٍ تَرَدَّى … بثوب قينانها الأثيث (٥)

وإن الإنسان ليحس ما يشبه هذا فى قصيدته :

وثَناياكَ إنها إغريض … ولآلٍ تُؤْمٌ وبرقٌ وميض (٦)
وأقاحٍ منوَّرٌ فى بِطاحٍ … هزه فى الصباح روضٌ أريض (٧)
وارتكاضُ الكرى بعينيك فى النو … م فنونا وما لعيني غموض

ومنها فى وصف الصحراء :

وبساطٌ كأنما الآلُ فيه … وعليه سَحْقُ المُلاءِ الرحيض (٨)
يصبح الداعِرِيُّ ذو الميعةِ المِرْ … جَمُ فيه كأنه مأبوض (٩)
قد فضضنا من بِيدهِ خاتم الخو … فِ وما كلُّ خاتم مفضوض

(ب) توخى الصنعة فى اختيار اللفظ : هذا برغم قافيتها الضادية، وكلماتها الغريبة . فللألفاظ عند أبى تمام موسيقى خاصة يطلبها، ويحاول بها تحقيقها . وكما تختلط فى الموسيقى الأصوات

(١) الصرف : البلية ، المكيث : الرزين ، ينبث : ينبس . (٢) الدث : الضعيف من المطر أو الريح .
(٣) العين بالكسر : بقر الوحش . والحقف بالكسر : المعوج من الرمل جمعه حقوف . والميثاء : الأرض السهلة . وجمعه : ميث
(٤) الدملج : المعضد يشبه السوار يلبس فى العضد . والرعثه : القرط .
(٥) جارية رعبوبة : حسناء حلوة ناعمة . القينان الطويل من الشعر . والأثيث : الغزير .
(٦) الإغريض : طلع أبيض طرى . تؤم : توأم . وميض : لامع . (٧) أقاح : جمع أقحوان ، وهو البابونج . أرض أريضة : زكية ، معجبه للعين ، خليقة للخير . (٨) الآل : السراب والسحق : الثوب البالى . الملاء : جمع ملاءة : وهى الربطة . والرحيض : المغسول . (٩) الداعرى : وصف للجمل . وميعة الشباب : أوله . والمرجم ، كمنبر : ما يرجم الأرض بحوافره من الدواب : وصف بالسرعة والقوة جميعا . والمأبوض : المشدود رسغ يده إلى عنقه فهو مقيد . والبيد : الصحارى . والمفضوض : المفكوك . فض خاتم الكتاب : فكه .

obeikandl.com

الرقيقة بالأصوات المتماثلة ليتكون من المجموع موسيقى ترضى السمع والقلب معا ، بتناسبها وتغايرها ، فكذلك فن أبي تمـام فى اختيار ألفاظه . فلقد كان يطلب أحيانا اللفظ الغريب و يفخر به فيقول :

فكأنما هي فى السماع جنـادلٌ وكأنمـا هي فى القلوب كواكبُ

و يقول : وكان لِصَيْدِ الوحش منها حلاوةٌ على قلبه ليست لِصَـيْدِ الأوابد

ولم يقف اختيار أبي تمام للفظ عند حلاوته فى السمع ، ولكنه كان يختاره أيضا ليجانس بينه وبين آخر ، أو ليطابق ، أو ليورى . وليس بديع أبي تمـام بالسهل البسيط ، أو القليل النادر ، و إنمـا هو منبث فى كل تضاعيف أبياته ، لا يكاد يخلو منه شعره إلا فى النزر اليسير جدا .

وكان التوفيق بين أداء المعـانى ، و بين الإبداع فى اللفظ ، واختراع الاستعارات وتعديدها ، مطلبا عسيرا ، ومركبا وعرا ، فكثيرا ما كان جمـال اللفظ يذهب فى سـبيل المعنى ، أو ينقص المعنى فى سبيل اللفظ . وكثيرا ما تستوعر الجملة واللفظ لاضطراب الصورة ، أو لمحاولة تنسيقها . فيأتيها الغريب ، و يأتيها الغموض .

(ج) التكرار : ويغلب التكرار فى لفظ أبي تمام غلبة واضحة ، تجعله ظاهرة من الظواهر التى تستدعى التعليل . وهو فى غالبه صورة من صـور بديع أبي تمـام ، ولقد كان القدماء يسمونه " رد الأعجاز على الصدور "(1) . وسآتى هنا بأمثلة قليلة ، إذ الديوان ممتلىء بها . يقول أبو تمام :

أدارَ البـؤسِ حَسَّنَكِ التَّصابى إلىَّ فصرتِ جنـاتِ النعـيم

لئن أصبحتِ ميـدانَ السوافى لقـد أصبحتِ ميدانَ الهموم

ويقول : فالجوُّ جـوِّى إذ أقمتُ بغبطة والأرض أرضى والسماء سمائى

ويقول : أظنُّ الدمـع فى خدى سـيبقى رُسُـوما من بكائى فى الرسـوم

وليـل بت أكلؤه كأنى سَـليمٌ أو سهرتُ على سَـليم

ويقول : لم يُعْطِ نازلةَ الهوى حقَّ الهوى دَنِفٌ أطاف به الهـوى فتجلدا

وهكذا يكثر التكرار فى شعره ، ولكنه ليس من قبيل الهذيان باللفظ الواحد ، إطالة للقول ؛ ولا سترا لحلة العجز ، حين يفتقر القائل إلى الفكرة .

(1) انظر كتاب البديع لعبد الله بن المعتز طبع لندن ص ٤٧ ، ٤٨

(د) آختيار الصفات : وكثيرا ما يوفق أبو تمـام فى آختيار الصفات ، حتى لتقع بعد موصوفها موقع الجديدة . كقوله : بَصُرتَ بالراحةِ الكُبرى . وكقوله : "زُعْزِعَت الأرضُ الوقور". وكقوله :

حتى نقضتَ الرومَ منك بوقعة شـــنعاءَ ليس لنقضها إبرامُ

(هـ) اللفظ وسيلة الى السخرية : وقد يملى عليه اختيار اللفظ شيء السخرية، أو الدعابة. كقـــوله :

فضربتُ الشتاء فى أخْدَعَيهِ ضربةً غادرتْهُ عُـودا رَكُوبا

ولقد عابوا عليه أخدَعَيْه هذه، حتى قال الآمدى عنه : إنه يستحق من أجلها أن يصفع فى أخدَعَيْه. وتغاضى عن تصوير هذا اللفظ لحالةٍ فى نفس أبي تمـام . وكقوله أيضا :

فلو ذهبَتْ سِناتُ الدهرِ عنه وأُلـقِى عن مناكِبِه الدِّثارُ
لعـــدَّل قِسمةَ الأيامِ فينـا ولكن دَهْرُنا هـــذا حِمـار

أو دلالة اللفظ بجرسه على المعنى الذى يقصده. هذا إلى فائدته الأولى. كقوله فى وصف السحاب :

مُزْمجِرُ المَنْكِبينِ صَهْصَلِقٌ يُطْرِق أزْلُ الزمانِ من صَخَبِهْ

وديوان أبي تمـام من أغزر الدواوين ، وأكثرها عدد لفظ . فإن سـعة مادته اللغوية تدعو إلى الدهشة، وإن الإنسان ليسائل نفسه عن مقدار ما كان هـذا الشاعر يلم به من مفردات اللغـة ، إذا كانت هذه المجموعة الضخمة هى مقدار ما كان يجرى منها على لسانه، ويستعمله فى شعره .

(و) تركيب الجملة فى شعر أبي تمـام : جمـلة أبي تمـام نتاج نفسه المركبة ؛ فهى تشبهها تركيبا وتنوعا . ويبدو بين أجزائها آشتباك وتعلق، وقد يزيد هذا التماسك حتى يصبح معاظلة كما فى قوله :

يا يومَ شرَّد يومَ لهوىَ لهوَهُ بِصبابتِي وأذلَّ عِزَ تجـلُّدِى

والجملة عنده كأكثر ما تكون عند شاعر تعدد عناصر، وتنوع مناحٍ، حتى إن الباحث لا يكاد يعدم، على كل وجهة من وجهات النحو، مثلا فى شعره. ونقرأ فى آبن النديم أن طيفور قد عمل كتابا سماه : "سرقات النحويين من أبي تمام" وهو دليل على الاشتباك الواضح الذى كان النحاة يجدونه بين شعر أبي تمـام والنحو . وقد تكون الجملة واضحة المعنى : رغم تمدد عناصرها كقوله :

إن جدَّ ردَّ الخطوبَ تَدْمى وإنْ يلعبْ بِجِـــدُّ العَطاءِ فى لَعِبــهْ

وقد تغمض شيئا كقوله :

إذا اليومُ أمسى وهو غضبانُ لم يكن … طويلَ مبالاةٍ به حين يغضب

وقد يزداد غموضها، لتعدد أجزائها، واضطرار الشعر إياه إلى التفريق بينها . كقوله :

أهَيَسُ أَلْيَس لجَّاء إلى هِمَم … تغرّقُ الأُسْدَ في آذيّها اللّيسَا

أى أن همه تغرق فى موجاتها الأسدَ الليس . ففصل بين الصفة والموصوف فصلا يوقع الفهم فى شيء من الاضطراب . وهو كثير استعمال الإضافات كقوله :

له لِواء نَـدًى ما هَزّ عامــلَه … إلا أراكَ لِواءَ البخلِ منكوسا

مقابِلٌ فى ذُرَى الأفلاكِ منْصِبهُ … عيصًا فعيصًا وقُدْمُوسًا فقُدْمُوسا (١)

الواردين حِياض الموتِ متأقة … ثُبًا ثُبًا وكراديسا كراديسا (٢)

والمانعين حِياض المجدِ إن دُهِمَتْ … منع الضراغِمِ آجاما وعِرّيسا (٣)

وهو لا يعبأ أن يتبع المضاف أو المضاف إليه بوصف، فيزيد بذلك مقدار الكد الذهنى الذى يلزم قارئه، حتى يفهم قصده، كقوله :

الشرق غربٌ حين تفهم قصدَه … ومخالِفُ اليمنِ القصىّ شآمُ

ومن أهم ما يلاحظ عليه الإسراف فى استعمال الصفات لما هو ركن فى الجملة، ولما هو فضلة. وهذه الصفات قد تكون مفردة ، وقد تكون جملة . وقد تنصبّ صفات متعددة على موصوف واحد كما فى قوله :

أنا فى ذمةِ الكريم سليما … نَ السليم الهوى الشريف الهمامِ

نُطْتُ همّى منه بهمةِ قَرْمٍ … ثقّلتْ وطأتِى على الأيامِ

بحسامِ اللسانِ والرأيِ أمضى ، … حين يُنْضَى ، مِن الجُرازِ الحسامِ (٤)

والصفات عنده لا تقف عند حد الجملة البسيطة، بل تتركب وتتعقد تعقد الأصل، فتسمع مثل قوله :

فى مَعْرَكٍ أما الحِمام فمفطِرٌ … فى هَبْوَتَيْـهِ والكُماةُ صِيامُ

والضرب يُقعِدُ كلَّ قَرْم كتيبةٍ … شرِس الضريبةِ والحُتوفُ قيامُ

---

(١) هناك رواية أخرى : مقابل فى ذرى الأذواء . والأذواء هم ملوك اليمن القدماء . والعيص : الأصل . والقدموس : الملك المعظم . (٢) متأقة : مفعمة ممتلئة . ثبا ثبا : أى جماعات . (٣) الآجام : جمع أجمة . وهى الملتف من الشجر . والعريس : عرين الأسد . (٤) الجراز كغراب : الحسام القاطع .

فأما وما بعدها صفة " لمعرك " ، ويقعد وما بعدها خبر " للضرب " ، وقرم ، المفعول به ، الفضلة في الجملة : مضاف إلى " كل " ، وهي بدورها مضافة إلى "كتيبة " ، وقرم ، موصوف "بشرس" المضافة إلى "الضريبة" ويلي أولئك جميعا الجملة الحالية . هذا الى ما في البيت من بديع .

يأتي بعد ذلك الفصل بين أجزاء الجملة المتلازمة ، فصلا لا آختيار فيه ؛ ذلك أنه يكثر آستعمال المتعلقات ، كما قدمت ، بجزء من الجملة واحد ، فيضطر إلى الفصل بين متعلق ومتعلَّقه ، بغيره ، كقوله :

وواللهِ لا تقضي العيونُ الذي له ... عليها ، ولو صارتْ مع الدمع أدْمُعَا

ومنهـا :

فتى كلما آرتاد الشجاعُ من الرَّدى ... مفرًّا غداة المأزِق ، آرتاد مصرعا

إذا ساء يومٌ في الكريهة منظرا ... تصلّاه ، علمًا أن سيحسُن مسمَعا

وفي البيت الأخير إقدام أبي تمام على ما يقل آستعماله في الكلام عادة ، فهو يستعمل التميز مرتين في البيت الأخير ، ويستعمل المفعول لأجله : وهو "علما" ، ثم يلحقه بمفعول به مصدر منسبك من أن المخففة وما بعدها .

كل ذلك آشتجار بين المعاني في ذهن أبي تمـام ، يتقاضاه أن يبرزها جميعا في عبارات تنـوء تحت ثقلها . وتفريقها في أبيات لا يتلاءم مع تكوين أبي تمـام النفسي ، لا يتفـق مع خلقه ، وليس التفريق بينها ، بعد ذلك ، بالذي يعطي الصورة الصحيحة لذلك الآشتباك الفطري في نفسه ، وما كان اللسان ليصور عند شاعر نفسه على غير صورتها .

وقد تمت لأبي تمـام السيطرة على هـذه الجملة في الطور الأخير من أطوار شعره ، فتهذبت ولانت ، ولكنها لم تفارق تركيبها ، الذي هو مظهر تركيب نفسه الثابت الوطيد .

٤ ــ حكمـــة أبي تمـام

قد يكون غريبا شيئا عن الخصائص الفنية لشعر أبي تمام أن أتحدث فيها عن حكمته . ولكن الحكمة عند أبي تمـام ليست من نوع الفلسفة التي يمكن أن يبعدها الإنسان عن فن أبي تمـام .

(١) فإن هذه الحكمة ــ وأكاد أتحرى تجنب تسميتها الفلسفة ــ ليست إلا تصرفات عقلية في المعاني التي يطرقها أبو تمـام ، وتأتيـه عن طريق تجاربه في الحياة ، ونظراته إليها ، وتأملاته في تصاريفها . يأخذها فيصوغها شعرا ، ويكسوها من فنه ما يجعلها قريبة التناول ، رضية المأخذ ، حسنة الوقع في النفس .

(ب) وأوضح مظاهرها في شعره، تلك الأبيات الجارية مجرى الأمثال . ويمكنني أن أنقل منها هنا شيئا، فالجمع بين أشتاتها يعطى عنها فكرة أوضح . فمن هذه قوله :

مالى أرى جلَباً فَعْمًا ولستُ أرَى سُوقا، ومالى أرى سوقا ولاجلب !
أرضٌ بها عُشُبٌ جَرْفٌ وليس بها ماءٌ، وأخرى بها ماء ولا عُشُبُ !

وكقوله : والحظُّ يُعطاه غيرُ طالبِه ويحرز الدرَّ غيرُ مجتلبِه

وكقوله : وأى فتًى ينقاد للحلم أمرُه وأكثرُه رشدا إلى الغيِّ قائدُه
(يريد قلبه) .

وكقوله : وأقلُّ الأشياء محصولَ نفعٍ صحة القولِ والفعالُ مريض

وكقوله : ذاك الذى قَرِحتْ بطونُ جفونه مَرَهًا وتربة أرضه من إثمد

وكقوله : وإنى رأيتُ الوشم من خُلُق الفتى هو الوشمُ، لاما كان في الشعر والجلد

وكقوله : فقسا ليزدجروا ومن يكُ حازما فليقس أحيانا على من يرحم

وكقوله : وقد تألفُ العينُ الدجى وهو قيدُها ويُرْجَى شفاء السم ، والسم قاتل

وكقوله : ليس الصديقُ بمن يعيرك ظاهرا متبسما عن باطنٍ متجهم

وقوله : وليست فرحةُ الأوْباتِ إلَّا لموقوفٍ على ترَح الوداع

وقوله : فتى النكباتِ من يأوى إذا ما أطفْنَ به إلى خُلُقٍ وَسَاع

وقوله : وبما كانت الحكماءُ قالت : لسانُ المرءِ من خدمِ الفؤادِ

وقوله : فلسْتَ الحزمَ إن حاولتَ يوما بأن تستطيع غيرَ المستطاع

وقوله : وإذا أراد الله نشر فضيلةٍ طُويتْ أتاح لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعال النارِ فيما جاورت ما كان يعرف طيب عَرْفِ العودِ

وقوله : ينال الفتى من عيشه وهو جاهلٌ ويُكْدِى الفتى فى دهره وهو عالم
ولو كانتِ الأقسامُ تجرى على الحجا هلكْنَ إذن من جهلهن البهائم

وقوله : * رُبَّ حزمٍ فى بغضةِ الموموق *

وقوله : * وترك الشكرِ أثقل للرقاب *

وقوله : * وكم من مُصيبٍ قصدَه غيرُ قاصدِ *

وقوله : * وسم الليالى فوق سم الاساودِ *

وقوله : لى حـرمةٌ والتّ على بجـالكم والماءُ زُرْقُ جِمامِه للأوّلِ

وقوله : والطائرُ الطائرُ فى شانهِ يلوى بحظ الطائرِ الواقـعِ

وقوله : نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

وقد تطول هذه النظرات شيئا كقوله :

وهل من حكيم ضيَّع الصبرَ بعد ما رأى الحكماءُ الصبرَ ضربةَ لازم

ولم يجـدوا من عالمٍ غـيرِ عاملٍ خلافا ، ولا من عاملٍ غيرِ عالمِ

رأوا طرقاتِ العجزِ عُوجًا قطيعةً وأفظعُ عجـزٍ عندهم عجـزُ حازم

وكأبياته التى سبق ذكرها فى خالد بن يزيد بن مزيد التى أولها :

ممتلِيء الصـدرِ والجوانح من رحمـةٍ مملوئهن من حسدِه

الأبيات ... ...

(ج) هذه هى حكمة أبى تمـام . وهى شعر صحيح ، لقربه من القلب ، ولتعبيره عن مشاعر تعتلج بنفوس الناس جميعا ، وهم فى حاجة إلى الإبانة عنها فى مثـل هذه الأبيات القصار ، لتكون أوجز وأليق للجريان بين الناس . وهى تتلاءم مع الروح العام لشعر أبى تمـام ، الذى لا يخلو من فكرة فى أى ناحية من نواحيه .

٥ ــ نظرة أبى تمـام إلى فنـه

(ا) تلك هى الخصائص الفنية لشعر أبى تمـام التى آستطعت أن أقع عليها . ولقـد وجدته يعرفها فى نفسه جميعا ، فيشير اليها فى شعره ، لا يكاد يغفل عن إحداها ، إشارة المفكر ، شأنه فى كل شعره ، حتى إن ما قاله فيها جدير بأن يكون نظرات ناقد فنان ، لايلقى القول جزافا . فيقول فى وصف فكرته ، الجارية أبدا فى شعره :

نَشْرٌ يسـير به شِعرٌ يهـذبه فكرٌ يجولُ مَجال الروح فى البدنِ

ويقول فى وصف بديع شعره، ومحسناته، واستعاراته، ووقع القصيدة فى القلب كما يقع النور :

إذا ما شعرُ قومٍ كان ليلا ... تبلَّجنا كما انشقَّ النهارُ
وإنْ كانت قصائدُهُمْ جُدُوبًا ... تلونتا كما ازدوج البَهَارُ

ويقول فى وصف سيرورة شعره، وجدة معانيه :

تلك القوافي قد أتَيْنَكَ نُزَّعًا ... تتجشَّمُ التهجير والتغليسا
من كل شاردةٍ تُغادر بعدَهَا ... حظَّ الرجالِ من القريضِ خسيسا
تلهو بعاجلِ حُسنِها وتَعُدُّها ... عَلَقًا لأعجاز الزمانِ نفيسا
وجديدةِ المعنى إذا معْنَى التي ... تشقَى بها الأسماعُ كان لَبِيسا

ويقول فى وصف لفظه وبديعه :

مفصَّلةٌ باللؤلؤ المنتقَى لها ... من الشِّعرِ، إلا أنه اللؤلؤُ الرطْبُ

ويقول فى وصف الغريب من ألفاظه، والوحشيّ، والبيت يبين أنه كان يقصده :

كانتْ لِصَيْدِ الوحيش منها حلاوةٌ ... على قلبِه ليستْ لِصيدِ الأوابدِ

ويقول موضحا ما كان يتبعه أحيانا فى المدح من كذب أو صدق :

ومتى مدحتُ سواكَ كنتُ متى يضقْ ... عنى له صدقُ المقالةِ أكذبِ

ويقول فى جِدّة قصائده، وقبولها للحياة على الأيام، وكيف كان يسهر فى شعره الليل الطويل :

خذها ابنةَ الفكرِ المهذَّبِ فى الدجى ... والليلُ أسودُ حالكُ الجلبابِ
بِكْرًا تُوَرَّثُ فى الحياةِ وتَنْثَنِي ... فى السلمِ وهى كثيرةُ الأسلابِ
ويزيدها مرُّ الليالى جِدّةً ... وتقادمُ الأيامِ حسنَ شبابِ

ويقول ردا على دعوة من ادعى ذهاب القدماء بالشعر، وكان الجاحظ يتمثل بهما :

لا زِلْتَ مِن شكرِيَ فى حُلَّةٍ ... لا بِسُها ذو سَلَبٍ فاخرِ
يقول من تقرع أسماعَه : ... كم ترك الأوّلُ للآخِرِ

ويقول فى ابتكاره لشعره :

منزّهةٌ عن السرقِ المورَّى ... مكرَّمةٌ عن المعنى المُعادِ

ويقول فى المزج فيها بين الغريب والأنيس :

إنســية وحشية كــثُرتْ بهـا حركاتُ أَهلِ الارضِ وهى سُكُونُ

* * *

فكأنمـا هى فى السماع جنادلٌ وكأَنمـا هى فى القـلوب كواكبُ

ويقول فى تعدد فنونه فى القصيدة الواحدة :

الجــد والهزل فى توشيع لُحْمتها والنبْلُ والسُّخْف والأشجانُ والطرب

* * *

(ب) وهى نظرات ناقد أكثرمنها نظرات شاعر . ولقد جاءت كتب نقد الشعر، بعد أبى تمام، فلم يمض أحدها دون أن يتحدث عن هذه النواحى فى نقد الشعر ، حديثا قـد يطول عن هذا وقد يقصر ، ولكنه لا يخرج عن حدوده ، ولا يبلغ جماله .

فاذا عقبت على هـذا بأن أبا تمـام كان أوائل من وضع قواعد النقد الأدبى العربى وأصوله ، لم أكن فيه مسرفا ولا غاليا .

ولقد تحدّث بعد هذا أبو الطيب فى وصف شعره ، فكان فى حديثه مقلدا لأبى تمـام ، تقليده أياه فى كل ما كتبـه . ولكن ليس له حلاوة قوله ، ولا تهـذيب نظراته . وهو فى قوله فاخر أكثر منه ناقدا .

٦ ـــ منزلة أبى تمـام فى الأدب العربى

فرغت من الحـديث عن فن أبى تمـام . وهو فن مركب ، ليس بالبسيط ، ولا الساذج . جميـل عذب ، قد يعتريه فى حالاته بعض الضعف الذى لا يسـلم منه إنسان . ولسنا الآن ممن يتعصبون له ، أو يتعصبون عليه . فلا داعى لأن نجرده من أخطائه ، ولا داعى لأن ننسى فى سبيل هذه الأخطاء حسناته .

ولست أعرف فى العربية كلها شاعرا كأبى تمام : من حيث فيض شعره ، وخصبه النفسى ، وغزارته . ولا أعرف شاعرا خرج بالشـعر العربى من دائرته الضيقة ، وأجراه مجرى القصص ، وتتبع فيه المعنى ، وراعى فيـه اللفظ ، ووفق فى أن يكسو فنه بهـذا الحس الشعرى الرائع ، توفيق أبى تمـام .

ولقد تحدثت من قبل عن منزلة أبي تمام الشاعر من الأمة العربية ، وكيف يكون حلقة في تاريخها النفسي، وصورة من تاريخها الاجتماعي، لا يمكن أن يؤديها غيره، ولا يمكن أن يغني عنها التاريخ النفسي لهذه الأمة . ويمكنني هنا أن أقول إن الشعر العربي كفن لم يكتمل في يد شاعر اكتماله في يد أبي تمام .

ففيه نجد الفكرة، والجمال اللفظي، وجمال الصورة، وحلاوة النفس، والشاعرية الفياضة، التي لم تتهيأ لشاعر قبله ولا بعده .

ولقد بلغت الفكرة الشعرية في يد أبي تمام أوجها . فلما بلغت المتنبي التبست عنده بالفلسفة، ولم يكن حسه بالجمال يعدل حس أبي تمام به، وكان أكثر شغلا بمظاهر القوة في الوجود .

فأخذ معنى الشعر عنده يتحدر شيئا ، وتلك العاطفة الرقيقة العذبة — برغم قسوتها حينا — تستحيل عنده إلى عاطفة، خشنة شيئا، صاخبة، هي لون من ألوان صراع نفس معذبة مع الحياة الجبارة في ذلك العصر الغريب .

فأبو تمام عندي شاعر العربية الأكبر، لا أعدل به شاعرا آخر من شعرائها.

كمل طبع كتاب "أبي تمام الطائي" بمطبعة دار الكتب المصرية
في يوم الثلاثاء ٢٧ رمضان سنة ١٣٦٤ (٤ سبتمبر سنة ١٩٤٥) م
محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية